Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

إشارات المتقدمين الى الموسيقى الصوتية في القرآن الكريم

الدكتور محمّدباقر حجّتي / استاذ جامعة طهران
الدكتـــور هـارون نـوح معابـــدة / باحـث

وقد اردت بهذه المقالة تتبع الإشارات الى الموسيقى الصوتية في القرآن الكريم عند علماء اللغة ودارسي اعجاز القرآن الكريم من القرن الثالث وحتى القرن السابع الهجري، وبيان وجهة نظرهم وتعليلهم للسبب الذي ادى الى هذه الموسيقى، وبيان وجه الاتفاق والاختلاف بينهم وما زاده اللاحق على السابق في هذا الموضوع، وبذلك كله يستطيع القارئ للقرآن الكريم أن يدرك المزية التي بها فاق القرآن الكريم غيره من النصوص الاخرى في هذا الجانب، وأن يتلمس هذه الناحية من نواحي إعجاز القرآن الكريم المتعددة.

واسميت دراستهم لهذا الموضوع بالاشارات ـ مع أن بعضهم قد تعرض له بوضوح ـ من باب التغليب إذ أن اكثرهم اشار له اشارة موجزة في طي كلامه عن الإعجاز.

من المعلوم في السيرة النبوية أن الكثير من العرب اسلموا بمجرد سماع القرآن الكريم، وأن القرآن هو المعجزة الكبرى الخالدة لنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقد تحدى الانس والجن أن يأتوا بمثله فما استطاعوا وتنازل الى عشر سور فما استطاعوا، وتنازل الى سورة واحدة فما استطاعوا، مع أن بعض سور القرآن لا تزيد على كلمات معدودة، والعرب فيهم الفصحاء اذا تكلموا والبلغاء اذا قرضوا الشعر وكلامهم محصور بالنثر والشعر.

وكانوا اذا تحدثوا عن القرآن شهدوا أن له وقعاً في النفوس غير ما للشعر والنثر، فلا هو شعر ولا هو نثر مألوف.

كانت السليقة العربية تقول لهم هذا أفصح الكلام وأحلاه ونقل هذا عن مؤمنهم وكافرهم.

وبالسليقة كان العرب يعرفون سليم القول من ملحونه وفصيح الكلام من ركيكه، وموزون الشعر من غيره.

ولما احتاج العلماء الى وضع قواعد للّغة العربية

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

استنبطوها بالاستقراء من كلام العرب وأرادوا بذلك خدمة القرآن الكريم وبيان تميّزه عن كلام الناس فوضعوا قواعد النحو والصرف، وعرفوا أوزان الشعر وهذه في الحقيقة أمور منضبطة أمكن الوقوف عليها بعد جهد، أما الفصاحة والبلاغة والجرس الخاص بعذب الكلام فكان ضبطه غير سهل لأنه يتوقف على الذوق والسليقة ومع ذلك وضعت فيه قواعد مهمّة عرف من خلالها بعض أسرار اعجاز القرآن وتفوّقه على غيره وعدم امكان محاكاته ومن جملة ما اهتم به العلماء في هذا المجال التعرف على سر عذوبة الفاظ القرآن وسلاسة اسلوبه وحلاوة وقعه في الآذان والقلوب، وهو ما اطلق عليه المحدثون اسم (الموسيقى الصوتية).

وكلمة «موسيقى» هنا لها مفهوم أعم وأشمل من المعنى المتداول إذ أنها بالمعنى المتداول ينظر إلى حسن وقعها على الأذن فقط دون النظر إلى سهولة وصعوبة ادائها على الآلات، ولكنها هنا ينظر إلى الأمرين معاً حسن وقعها على الأسماع وسهولة اجرائها على اللسان.

ولا بد لي من التذكير بأن لفظ الموسيقى الصوتية لم يرد في كتب وأبحاث العلماء الذين درست آثارهم، وانما الذي ورد فيها ألفاظ اخرى كانت مستعملة في عصرهم مثل: الفصاحة، أو البلاغة، أو التلائم، أو حسن اللفظ، أو الائتلاف والجودة. وكل هذه الألفاظ قصدوا بها حسن وقع الصوت الناجم عن النص الأدبي سواء أكان قرآناً أم غيره على الأسماع وسهولة نطقه والتلفظ به على الألسن، وإنما عبرت عنه هنا بالموسيقى الصوتية لأنه التعبير المتداول والمستعمل في أيامنا هذه.

وأذكر أيضا أنه وإن كان بعض العلماء الذين سندرس أقوالهم في هذا الموضوع قد كتبوا عن الشعر أو النثر أو عنهما إلا أنهم قصدوا من ذلك القرآن الكريم، وذلك على اساس أن الاشياء لا تعرف إلا بأضدادها فلا يعرف التلائم إن لم يعرف التنافر الذي أمثلته كثيرة في الشعر والنثر وليس له مثال واحد في القرآن الكريم.

والعلماء الذين سأدرس آثارهم هم: الجاحظ، والرماني، والخطابي، وابن رشيق، والخفاجي، والجرجاني، والبغدادي، وأسامة بن منقذ، وابن الأثير، وابن أبي الأصبع، وحازم القرطاجني.

أوّلاً: الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني (١٦٣ ـ ٢٥٥هـ)

اشار الجاحظ إلى الموسيقى الصوتية واهميتها فقال «أجود الشعر ما رأيته متلاحمَ الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم أنه أفرغ إفراغاً واحداً، وسبك سبكاً واحداً فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان»[١]. ونرى أنه أرجع هذه الجودة إلى كون الكلام (متلاحم الاجزاء) أي أنه من بدايته إلى نهايته شيء واحد وليس فيه ما هو أجنبي يفرق اجزاءه، ويوضح ذلك بقوله: «سهل المخارج» أي أن هذه الوحدة والتلاحم بين اجزاء الكلام من حيث كونه كله ذا مخارج سهلة.

وهو بهذا يشير إلى احدى الجهتين اللتين ينظر من خلالهما إلى موسيقى الكلام وهو سهولة التلفظ به، ولم يفصح عن الاخرى وهي كيفية وقعه على الاسماع.

وهذه على ما أظن هي بداية في الحديث عن الموسيقى الصوتية للنصوص العربية عند علماء اللغة ونقادها.

ثانياً: الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى (٢٩٦ ـ ٣٨٤هـ)

عرّف الرماني البلاغة بأنها: «ايصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ»[٢] وقسم الكلام من حيث حسن صورة اللفظ إلى ثلاثة أوجه: متنافر، ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا[٣].

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

وقد بين الرماني هذه الأقسام فقال: «التلائم نقيض التنافر»[٤] ثم زاد التلائم ايضاحا بقوله: «التلائم تعديل الحروف في التأليف»[٥]، ويقصد بتعديل الحروف أن لا تكون مخارج حروف الألفاظ شديدة البعد أو القرب[٦] وضرب على ذلك امثلة. أما المتنافر فمثاله:

(وقبر حرب بمكان قفر

وليس قرب قبر حرب قبر)[٧]

وأما المتلائم من الطبقة الوسطى فمثل له بالأبيات التالية:

(رمتني وستر الله بيني وبينها

عشية آرام الكناس رميم)

(رميم التي قالت لجيران بيتها

ضمنت لكم ألا يزال يهيم)

(ألا رب يوم لو رمتني رميتها

ولكن عهدي بالنضال قديم)[٨]

والمتلائم من الطبقة العليا فمثاله عنده هو القرآن كله[٩] ويشير إلى كيفية معرفة الكلام المتلائم بأن ذلك «يظهر بسهولته على اللسان، وحسنه في الأسماع، وتقبله في الطباع»[١٠].

وبذلك نرى أن الرماني قد أشار إلى أن الموسيقى الصوتية في الكلام تنتج عن تلائمه، هذا التلائم الناتج عن عدم القرب الشديد أو البعد الشديد في مخارج الحروف، ومن خلال الأمثلة التي ضربها على ذلك نلاحظ أنه يقصد أن يكون ذلك التلائم في كلمات الجملة مع بعضها في حال التركيب لا في ألفاظها حال الإفراد فقط، وهذا ما أشار اليه الجاحظ بقوله: «متلاحم الأجزاء». وان هذا التلائم إذا ما وجد أدى إلى سهولة النطق بالكلام وإلى حسن وقعه على الأسماع.

ثالثاً: الخطابي، حمد (أو أحمد) بن محمد بن ابراهيم بن الخطاب البستي (٣١٩ـ٣٨٨ هـ)

اشار الخطابي إلى الموسيقى الصوتية في الكلام وفي القرآن بشكل عام، وذلك عندما قسم الكلام إلى ثلاث طبقات، أعلاها: طبقة الكلام البليغ الرصين الجزل، وأوسطها: طبقة الكلام الفصيح القريب السهل، وأدناها: طبقة الكلام الجائز الطلق الرسل[١١].

ويرى الخطابي أن القرآن الكريم قد حاز على هذه الأقسام الثلاثة فقال: «فانتظم له بامتزاج هذه الاوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة»[١٢] وهذا برأيه السبب في الوقع الجميل للقرآن عندما سمعه العرب، يقول الخطابي: «كانوا يجدون له وقعا في القلوب وقرعا في النفوس يريبهم ويحيرهم، فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعاً من الإعتراف، لذلك قال قائلهم: «إن له حلاوة وإن عليه طلاوة»[١٣].

ونلاحظ أن في كلام الخطابي ـ وإن كان عاماً ـ اشارات إلى الموسيقى الصوتية من خلال وصفه للقرآن بأن يجمع صفتي الفخامة التي تكون في نطق الألفاظ، والعذوبة التي تكون في سماعها، ولكنه لم يوضح كيف تكون الألفاظ فخمة وعذبة إلا من خلال كلام عام وهو امتزاج تلك الطبقات الثلاث التي لم يحدد أصلاً معالمها بدقة، وبهذا فإنه لم يخطُ الى الامام أيّ خطوة في هذا الموضوع.

رابعاً: ابن رشيق، الحسن القيرواني (٣٩٠ـ٤٦٣ هـ)

فضّل ابن رشيق الشعر على النثر وذلك لوجود الوزن فيه فالكلام المنثور كما قال: «إذا أخذه سلك الوزن، وعقد القافية، تآلفت اشتاته، وازدوجت فرائده وبناته»[١٤]. بينما الكلام المنثور مبدد في الاسماع. وهذا الوزن الذي يحول به الكلام المنثور الى شعر يجعل كما يقول: «قراطه الآذان، وقلائد الأعناق، وأماني النفوس، وأكاليل الرؤوس، يقلب بالألسن ويخبىء في القلوب، ممنوعا من السرقة والغصب»[١٥]. والوزن هو الذي ينتج الموسيقى التي يحسن بها وقع الكلام على الاسماع.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

ثم يذكر قول الجاحظ وهو: «أن أجود الشعر ما رأيته متلاحم الاجزاء، سهل المخارج ..» ثم يعلق عليه بقوله: «إذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ لذّ سماعه، وخفّ محتمله، وقرب فهمه، وعذب النطق به، وحلي في أذن سامعه، فإذا كان متنافراً متبايناً عسر حفظه، وثقل على اللسان النطق به، ومجّته المسامع فلم يستقرّ فيها منه شيء»[١٦].

وزاد قوله ايضاحات عندما بيّن كيف يكون الكلام متنافراً بقوله: «ومن الشعر ما تتقارب حروفه أو تكثر، فتثقل على اللسان»[١٧] وضرب على ذلك أمثلة، أما الثقل أو التنافر الناتج عن تقارب مخارج الحروف بمثل له ببيت ابن بشر:

(لم يضرها والحمد لله شيء
وانثنت نحو عزف نفس ذهول)[١٨]

فرأى أن الشطر الثاني من البيت ثقيل، وذلك لقرب (الحاء) من (العين) وقرب (الزاي) من (السين)[١٩]، أي من ناحية المخارج.

وأما الثقل الناتج عن تكرار الحروف فمثاله عنده.

(وقبر حرب بمكان قفر
وليس قرب قبر حرب قبر)[٢٠]

فرأى أن الالفاظ تكررت والحروف تكررت حتى صار ألقيّةً[٢١] يختبر بها الناس، ولا يقدر أحد أن ينشده ثلاث مرات إلا عثر لسانه فيه وغلط[٢٢].

ومن خلال ما سبق نستطيع أن نقف على وجهة نظر ابن رشيق بالنسبة للكلام الذي يعذب النطق به ويلذّ سماعه وهو الكلام الذي تلاحمت وتلائمت اجزائه وسهل النطق به نتيجة عدم تكرار حروف ألفاظه أو تقارب مخارجها، فإذا ما زيد على ذلك الوزن كان أعذب وألذّ.

ونرى أنه بنى وجهة نظره على قول الجاحظ كما فعل الرماني إلا أنه زاد عليه بأن التنافر لا ينتج عن تقارب مخارج الحروف فقط وإنما أيضا عن تكرارها. وأنه يتفق مع سابقيه بأن هذا التلائم يجب أن يكون في الألفاظ والتراكيب معاً لا في الألفاظ وحدها، وهذا ما رأيناه عند بيانه لسبب التنافر في الأمثلة التي ذكرها.

خامساً: الخفاجي، عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان (٤٢٣ـ٤٦٦هـ)

عرّف الخفاجي الكلام بأنه: «ما انتظم من حرفين فصاعدا من الحروف المعقولة»[٢٣] وقسمه الى قسمين: الأول: متلائم، والثاني: متنافر، ويرى أن هذين القسمين لهما درجات فيقول: «وقد يقع في المتلائم ما بعضه أشدّ تلائماً... كما يكون في المتنافر ما بعضه أشدّ في التنافر»[٢٤]. ويوضح المقصود من التلائم والتنافر من وجهة نظره، فيرى أن «التلائم يحصل عندما يتجنّب الناظم تكرّر الحروف المتقاربة في تأليف الكلام»[٢٥]، وأما التنافر فلا يجده في تباعد مخارج الحروف ضارباً على ذلك مثالاً وهو كلمة (ألم) التي تباعدت مخارج حروفها وهي غير متنافرة[٢٦].

ويزيد الامر وضوحاً عندما يقول «ليس يخفى على أحد من السامعين أن تسمية الغصن غصناً أو فنّاً أحسن من تسميته عسلوجاً مع ما لحروف هذه الكلمة من التباعد.. وللكلمات: العذيب (اسم موضع)، وعذيبة (اسم امرأة)، وعذب، وعذاب، وعذب، وعذبات، ما لا يجده فيما يقارب هذه الألفاظ من التأليف، وليس سبب ذلك بعد الحروف في المخارج فقط ولكنه تأليف مخصوص مع البعد، ولو قدمت (الذال) أو (الياء) لم تجد الحسن على الصفة الأولى في تقديم (العين) على (الذال)»[٢٧]، وأرى أنه يقصد بالتأليف المخصوص كون الكلمة تكونت من حروف تباعدت مخارجها مع كون مخارج حروفها مرتّبة من الداخل (الحلق) الى الخارج (الشفتين).

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

كما أنه ذكر عاملاً آخر يؤدي الى التنافر وهو كثرة حروف الكلمات، إذ أنه يرى أن الكلمات كثيرة الحروف سيئة الوقع على الآذان، ومثّل لذلك بقول أبي تمام:

(فلأذربيجان اختيال بعدما
كانت معرس عبرة ونكال)

وقول المتنبي:

(إن الكريم بلا كرام منهم
مثل القلوب بلا سويداواتها)[٢٨]

فرأى أن كلمتي (أذربيجان) وكلمة (سويداواتها) قد قبحتها وخرجتا من وجوه الفصاحة لكثرة حروفهما[٢٩].

كما أنه يرى أن الكلمات المتلائمة إذا ما توالت زاد حسن الكلام فقال: «إذا ترادفت الكلمات المختارة ـ يعني ذات التأليف المخصوص ـ فيوجد الحسن فيه ـ أي الكلام ـ أكثر وتزيد طلاوته»[٣٠]. كما بين أن الكلمات ذات الحروف الكثيرة إذا ما ترادفت وتوالت ـ مهما كانت تشكيلة اصواتها ـ في التأليف يكون القبح أجلى من مرور كلمة واحدة كثيرة الحروف[٣١] وكذا سائر الكلمات المتنافرة. ولعل هذا هو السبب في كون الكلام المتلائم والمتنافر له درجات كما اشار هو الى ذلك في بداية الكلام.

من خلال كلام الخفاجي نرى أن التلائم الذي يؤدّي الى خفّة النطق على اللسان وعذوبة الكلام في الآذان هو أمر ناتج عن العوامل التالية، وهي: عدم تكرر الحروف المتقاربة في الكلام، وبعد مخارج حروف الكلمة الواحدة مع ترتبها على شكل مخصوص، وعدم كثرة حروف الكلمة الواحدة. وأن الكلام يكون أشد تلائماً إذا ما توالت الألفاظ المتلائمة في الكلام.

وإذا ما خلت الألفاظ من هذه العوامل كان الكلام متنافراً ثقيلاً في النطق سيء الوقع على السمع.

ونلاحظ أن الخفاجي قد ضبط مسألة البعد الشديد والقرب الشديد المؤدي الى التنافر والتي تحدث عنها الرماني وابن رشيق فأيدهم على ان التقارب الشديد يؤدي الى عدم السهولة في النطق، وبيّن أن البعد الشديد في المخارج ليس كله يؤدي الى التنافر بل بعضه متلائم لاقترانه بترتيب مخصوص لمخارج الحروف.

كما أنه اتفق الى حد ما مع ابن رشيق الذي قال بأن التنافر ناتج عن تكرار الحروف عندما قال ـ الخفاجي ـ أن تكرار الحروف المتقاربة المخارج يؤدي الى التنافر فشمل قوله قول ابن رشيق وزاد عليه الحروف الاخرى متقاربة المخارج. كما نرى أنه يتحدث عن الالفاظ المفردة دون التركيب كما هو الحال عند من سبقوه، إلا إذا كان يقصد التركيب من ترادف الكلمات المتلائمة المؤدية الى ارتفاع درجة التلائم في الكلام.

ولا يفوتني أن أذكر أن سبب مخالفة الخفاجي للرماني في تقسيمه الكلام الى قسمين بدلاً من ثلاثة ـ كما هو الحال عند الرماني ـ وقوله: «لا فرق بين القرآن وفصيح الكلام المختار في هذه القضية»[٣٢] هو أنه يرى أن وجه الأعجاز هو الصرفة[٣٣] وليست الفصاحة[٣٤]، ومن هنا جعل كلام فصحاء العرب مساوياً لفصاحة القرآن وذلك ـ في رأيه ـ لأن الفصحاء إذا ما استعملوا قواعد الفصاحة الميسرة لديهم استطاعوا الوصول الى طبقة عالية من التلائم الموجودة في القرآن.

سادسا: الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (..... ـ ٤٧١ هـ)

يوضح الجرجاني موقفه من الناحية الموسيقية بقوله: «وهذه شبهة أخرى ضعيفة عسى أن يتعلق بها متعلق ممن يقدم على القول من غير رويّة، وهي أن يدّعى لا معنى للفصاحة سوى التلائم اللفظي وتعديل مزاج الحروف حتى لا يتلاقى في النطق حروف تثقل

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

على اللسان كالذي أنشده الجاحظ من قول الشاعر:

(وقـــبر حـــرب بـمكان قـفر

وليس قرب قبر حرب قـبر)[٣٥]

وهو بهذا يقطع الطريق على من يريد أن يبحث في اهـتمامه بـالناحية الصـوتية فـي كـتابه فـيبطل كـون الموسيقى الصوتية هي التي تحدد المزية والتفوق فـي النص القرآني أو غيره من النصوص.

ويؤكد على هذا المعنى حـين يـحدد أن المـزية فـي النصـوص تعود الى المعاني فيقول «وانها ـ أي المزية ـ من حيّز المـعاني دون الألفـاظ، وأنـها ليست لك حـيث تسمع بأذنك، بل حين تنظر بـقلبك، وتسـتعين بـفكرك، وتعمل رويّتك وتـراجـع عـقلك، وتسـتنجد فـي الجـملة فهمك، وبلغ القول في ذلك أقصاه، وانتهى الى مداه»[٣٦]. ونرى مما سبق من حديث الجرجاني أنه يرد في كلامه على جميع من سبقوه ممن جـعلوا المـزية فـي الالفـاظ دون النظر الى المعنى.

سابعاً: البغدادي، أبو طاهر عبد القاهر بن طاهر

(..... ـ ٥١٧ هـ)

عرف البغدادي البلاغة بأنها «ألفـاظ يـعبر بـها عـن معان»[٣٧] ووضع شـروطاً لهـذه الألفـاظ حـتى تكـون بليغة وهذه الشروط نـوعان: ايـجابي: وذلك أن تكـون الألفاظ «سمحة سهلة، لها حلاوة وطلاوة، وعليها رونق الفصاحة»[٣٨]. وأما الشروط السلبية فهي: «الخـلوّ عـن البشاعة»[٣٩]، وأن يكون اللفظ «لا متوعّراً وحشـيّاً، ولا سـاقطاً عـاميّاً»[٤٠] ويـحدّد مـعنى الوحشـي بـقوله: «المتروك استعماله، الثقيل في المسمع»[٤١].

كما ذكر بأن يكون المقال مناسباً للمقام، وذلك بقوله ـ للشاعر ـ: «أن يتلطّف إذا تغزّل، ويفخم إذا افتخر»[٤٢].

ونلاحظ أن كلام البغدادي كان عموميّاً فهو لم يحدد الأساس الذي عليه تكون الألفاظ سمحة سـهلة، أو لهـا حلاوة وطـلاوة، ولم يـحدد السـبب الذي يـجعل اللـفظ الوحشي ثقيل في السمع وغير ذلك من الصـفات التـي ذكرها ولعله ترك ذلك للذوق.

ونرى أن موقفه من هذه القضية قريب مـن مـوقف الخطابي الذي كان كلامه عمومياً أيضاً إلا انه أوضح هنا السبب الذي أدى الى الاستفادة من طبقات الكلام التـي ذكرها الخطابي وهو مناسبة المقال للمقام، ولعله أيضاً بهذا يكون أخذ بعين الاعـتبار كـلام الجـرجـاني ـ الذي رفض أن تكون المزية في الكلام تعود الى الالفـاظ بـل هي في المعاني ـ دون أن يـردّ اقـوال السـابقين الذيـن جعلوا المزية في الألفاظ، فكان موقفه جامعاً بينهم.

ثامناً: ابن منقذ، أُسامة بن مرشد بن علي بن منقذ

(٤٨٨ ـ ٥٨٤ هـ)

اشار ابن منقذ الى الناحية الصوتية اشارة مـوجزة وذلك عندما طلب أن نقصد الكـلام الجـزل دون الرذل، والعـذب دون الجـهم[٤٣]، وطـلب أن يـجعل المـعنى الشريف في اللفظ الظريف[٤٤].

وبـهذا فـانه لم يـخطُ خـطوة الى الأمـام فـي هـذا الموضوع وكان كلامه قريباً من البغدادي.

تاسعاً: ابن الأثير، الكاتب نصر الله بن محمد

(٥٥٨ ـ ٦٣٧ هـ)

بيّن ابن الأثـير أن الفـصاحة هـي: «حسـن اللـفظ لا حسـن المـعنى»[٤٥]، وبـيّن كـيف يكـون اللـفظ حسـناً فصيحاً فقال: «ثبت أنَّ الفصيح من الألفاظ هـو الظـاهر البين. وإنـما كـان ظـاهراً بـيّناً لأنـه مألوف الإسـتعمال، وإنما كـان مألوف الاسـتعمال لمكـان حسـنه، وحسـنه مدرك بالسمع والذي يدرك بالسمع إنما هو اللفظ، لأنه صوت يأتلف عن مخارج الحروف، فما اسـتلّذه السـمع منه فهو الحسن»[٤٦] ونبّه الى أن الكاتب إذا مـا أراد أن يكتب فلا بـد له مـن ثـلاثة امـور: «الاول مـنها: اخـتيار الألفاظ المفردة، وحكم ذلك حكم اللآلئ المـبددة، فـانها

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

تتخير وتنتقى قبل النظم، والثاني: نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها لئلا يجيء الكلام قلقاً نافراً عن مواضعه، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها، والثالث: الغرض المقصود من ذلك الكلام»[٤٧]، ثم يقول: «الأول والثاني من هذه الثلاثة هي المراد بالفصاحة»[٤٨] وهو باخراجه الثالث المتعلق بالمعنى يؤكد قوله بأن الفصاحة حسن اللفظ لا حسن المعنى، وإن كان المعنى مهماً.

ويشير ابن الاثير الى جانب آخر يجب مراعاته عند التأليف وهو أن بعض الكلمات قد تكون في حال الافراد أقل فصاحة من غيرها، ولكنها عند التركيب تصبح أفصح من غيرها، ويمثل لذلك بالآية الكريمة ﴿تلك اذا قسمة ضيزى﴾ (النجم: ٢٢) وأن كلمتي «جائرة» و«ظالمة» أكثر حسناً من (ضيزى) على الافراد لكنهما لا تستطيعان أن تحلا محلها في الآية القرآنية، ولا ترقيان لمستواها لأنها جاءت على الحرف المسجوع الذي جاءت عليه السورة جميعها وغيرها لا يسدّ مكانها[٤٩].

ونرى أن ابن الأثير بقوله أن الفصاحة في اللفظ يردّ ويخالف الجرجاني الذي جعلها في المعنى دون اللفظ. وأن فصاحة الألفاظ عنده تعتمد على الذوق وهو استلذاذ السمع لها، دون أن يجعل لذلك سبباً مادياً يمكن على أساسه تمييز اللفظ الفصيح من غيره كما هو الحال عند الذين ربطوا ذلك ببعد أو قرب مخارج الحروف، ولعل ذلك اشارة منه الى أن السمع فقط هو المدرك للفصاحة ولا علاقة لمخارج الحروف وكيفيتها في فصاحة الكلمة أو عدمها.

كما نرى أنه عندما أوجب على الكاتب أن يختار الألفاظ المفردة أولا ثم تأليفها مع ما يشاكلها قد وافق الخفاجي الذي قال ان ترادف الكلمات المختارة سبب في جعل الكلام أكثر تلائماً، ولكن ابن الأثير كان أكثر دقّة إذ نبّه الى أنه لا يكفي أن تكون المفردات فصيحة حال الافراد بل يجب مراعاة ذلك أيضاً حال التركيب بل إنه قد يغض النظر عن كونها غير فصيحة حال الافراد اذا ما كانت في حال التركيب أنسب من غيرها.

وهو في مراعاة الفصاحة أو الموسيقى حال التركيب يكون قد أفصح عن ما جاء على شكل اشارات عند غيره مثل الجاحظ، والرماني وابن رشيق، والخفاجي.

عاشراً: ابن ابي الاصبع، أبو محمد زكي الدين عبد العظيم (..... ـ ٦٥٤هـ)

اشار ابن أبي الأصبع في بداية كلامه عن الأمور التي يجب مراعاتها في الكلام ليصبح سهلاً على اللسان وعذباً في الآذان أي له موسيقى متناسقة غير مشوّشة فقال: «من ائتلاف اللفظ مع المعنى أن يكون اللفظ جزلاً إذا كان المعنى فخماً، ورقيقاً إذا كان المعنى رشيقاً، وغريباً إذا كان المعنى غريباً بحتاً، ومستعملاً إذا كان المعنى مولداً محدثاً»[٥٠]. ويبين كيفية هذا الائتلاف فيقول: «إن الائتلاف من جهة ما قدمنا من ملائمة الغريب للغريب والمستعمل للمستعمل، لا من جهة المعنى بل ذلك من جهة اللفظ»[٥١]

ويبين أن تباعد مخارج الحروف عامل مهم في سهولة الكلام (أي الناحية الموسيقية) وذلك عندما يتعرض للآية الكريمة ﴿لئن بسطت اليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لاقتلك﴾ (المائدة:-٢٨) حيث قدم ما تعدى إليه الفعل بواسطة حرف الجر (إلى) على ما تعدى إليه الفعل بنفسه (يدك) وعلل ذلك فقال «لئلا تتوالى ثلاثة أحرف متقاربة المخارج فيثقل الكلام بسبب ذلك؛ فلو جاء الكلام فيه مرتّباً لقيل: (لئن بسطت يدك الي) والطاء والتاء والياء متقاربات المخارج»[٥٢]

ثم بيّن أن الكلام إذا ما روعي فيه الصفات السابقة من مناسبة المقال للمقام، ومراعاة المخارج حاز الكلام صفة الحسن فكان ـ كما قال ـ «متحدرا كتحدر الماء

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

المنسجم، بسهولة سبك، وعذوبة ألفاظ، وسلامة تأليف، حتى يكون للجملة من المنثور، وللبيت من الموزون، وقع في النفوس، وتأثير في القلوب، ما ليس لغيره»[٥٣].

ويختم ابن ابي الأصبع ذلك فيقول: «صناعة البيان يجب أن يكون المستحسن فيها ما يخص السمع فإنها مختصة بالكلام»[٥٤].

من خلال أقوال ابن أبي الاصبع نلاحظ أنه يتفق مع البغدادي وأسامه بن منقذ في مناسبة المقال للمقام. وأنه يتفق مع ابن رشيق في أن عدم تقارب مخارج الحروف يؤدي الى سهولة اللفظ.

ومن خلال المثال الذي ذكره فإنه يشير الى أن مراعاة عدم تقارب مخارج الحروف ليس على مستوى الألفاظ المفردة وإنما أيضاً على مستوى التركيب. وهذا ما اشار اليه من قبل الجاحظ والرماني وابن رشيق والخفاجي وصرح به ابن الأثير.

وبشكل عام فإن ابن أبي الأصبع لم يخط في هذا الموضوع خطوة الى الامام وإنما أعاد ما ذكره سابقوه.

حادي عشر: القرطاجني، حازم بن محمد بن حسن، (٦٠٨ـ٦٨٤هـ)

بيّن القرطاجني سبب التلائم في الكلام فقال: «والتلائم يقع في الكلام على أنحاء، منها أن تكون حروف الكلام بالنظر الى ائتلاف بعض حروف الكلمة مع بعضها، وائتلاف جملة كل كلمة مع جملة كلمة تلاصقها، منتظمة في حروف مختارة، متباعدة المخارج مترتبة الترتيب الذي يقع فيه خفة وتشاكل ما»[٥٥]، ويستدرك على ذلك بقوله، «وقد تعدم هذه الصفات أو أكثرها من الكلام وتكون مع ذلك متلائمة التأليف لا يدرى من أن وقع فيها التلائم وكيف»[٥٦]، كما وضع شرطا آخر حتى يكون الكلام حسن الوقع على الأذن. وهو «ألا تتفاوت الكلم المؤتلفة في مقدار الاستعمال؛ فتكون واحدة في نهاية الابتذال والاخرى في نهاية الوحشية وقلة الإستعمال»[٥٧].

ويؤكد القرطاجني على أهمية أن يكون اللفظ مستعذباً وإن خفي معناه فيقول: «إن اللفظ المستعذب وإن كان لا يعرفه الجمهور مستحسن ايراده في الشعر لأنه مع استعذابه قد يفسر معناه لمن لا يفهمه ما يتصل به من سائر العبارة»[٥٨] ثم يبين ما ينتج في حال كون العبارات والمفردات مفهومة ولكن وقعها في الأذن غير مريح فيقول: «كذلك الألفاظ الرديئة، والتأليف المتنافر وإن وقعت به المحاكاة الصحيحة فإنا نجد السمع يتأذى بمرور تلك الالفاظ الرديئة القبيحة التأليف عليها، ويشغل النفس تأذي السمع عن التأثر لمقتضى المحاكاة والتخييل»[٥٩].

وبالتدقيق في كلام القرطاجني نجد أنه استفاد من أقوال كل الذين سبقوه وتكلموا في التلائم أو الموسيقى الصوتية بجمع ذلك كله وتنسيقه ليخرج بوجهة نظر متكاملة في الأسباب التي تؤدي الى تلك الموسيقى في النص العربي وهي كما يلي:

أولا: على صعيد التلائم في اللفظة الواحدة.

يرى أن حروف الكلمة الواحدة يجب أن تكون من حروف مختارة متباعدة المخارج، وعلى ترتيب خاص. وهذه هي وجهة نظر الرماني وابن رشيق وأبن أبي الاصبع التي عدلها الخفاجي بإضافة أن البعد ليس سبباً في التنافر إذا ما اقترن بالترتيب الخاص وهو أن تكون مخارج الحروف مرتبة من الداخل الى الخارج. والتي يفهم منها أيضاً أن القرب الشديد لمخارج حروف الكلمة الواحدة يؤدي الى اختلاف الموسيقى الناتجة عنها.

ثانياً: على صعيد التركيب وتأليف كلمات الجملة الواحدة.

فرأى أن كلمات الجملة الواحدة بعد أن تكون في حد

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

ذاتها متآلفة يجب أن تتلائم وتتآلف مع الكلمات الاخرى في نفس الجملة، بأن يراعى فيها ما يراعى في الكلمة الواحدة من التلائم. وهذا ما اشار اليه الجاحظ والرماني وابن رشيق وأبن أبي الاصبع نوعا من الاشارة، ونبّه عليه الخفاجي وابن الأثير وإن كانا يختلفان في السبب المؤدي الى التلائم.

ثالثاً: مراعاة الذوق كسبب في التلائم.

إذ يرى أن التلائم قد يحدث مع عدم توفر شروط التلائم وهو بهذا يأخذ بنظر البغدادي وابن منقذ اللذين اشارا الى هذا اشارة وابن الاثير الذي جعل الفصاحة تعتمد على الذوق وتلذذ السمع بأصوات الألفاظ.

رابعاً: الأخذ بعين الاعتبار قاعدة مناسبة المقال للمقام. أو الربط بين اللفظ والمعنى.

إذ يفهم من قوله: «ألا تتفاوت الكلم المؤتلفة في قدر الاستعمال»، عدم رفضه لنوع من أنواع الألفاظ، وانما رفضه لاجتماع نوعين في كلام واحد لأن لكل معنى من الالفاظ ما يناسبه، وهذه هي قاعدة مناسبة المقال للمقام التي اشار اليها البغدادي وابن منقذ وابن أبي الأصبع بعد أن رفض الجرجاني أن يكون سبب الفصاحة في اللفظ، والذي أدى الى رد ابن الأثير عليه بأن الفصاحة في اللفظ لا في المعنى، فكان موقعه وسطاً بين الاثنين.

خامساً: نلاحظ أنه لم يشر الى أن تكرار الحروف سبب في عدم التلائم كما ذهب اليه ابن رشيق والخفاجي، وكذا كثرة حروف الكلمة الواحدة كما ذهب اليه الخفاجي.

وهذا ـ في رأيي ـ يرجع الى تنبهه الى وقوع هذين الأمرين في أفصح الكلام وأسهله نطقاً وأكثره عذوبةً القرآن الكريم حيث تكررت (السين) و(التاء) و(الغين) في قوله تعالى: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾(التوبة: ٨١) وتكررت (الهمزة) و(الميم) في قوله تعالى: ﴿سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ (البقرة: ٦) وجاءت كلمات في القرآن ذات حروف كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿فسيكفيكهم الله﴾ (البقرة: ١٣٧) وقوله تعالى: ﴿والمؤتفكات﴾ (الحاقة: ٩) وقوله تعالى ﴿انلزمكموها﴾ جاء هذا الأمر في القرآن دون أن يسبب تنافراً أو اضطراباً.

أو لعله أرجع ذلك الى الذوق والناس مختلفون في الأذواق إلا أنهم كلهم استحسنوا وقوع ذلك في القرآن.

الخاتمة:

وهكذا رأينا اشارات علماء اللغة ودارسي اعجاز القرآن الكريم الى الموسيقى الصوتية للنص القرآني، ووجهة نظر كل واحد منهم، وتعليله للسبب الذي أدى الى هذه الموسيقى، ورأينا أيضا أوجه الاتفاق والاختلاف بينهم، وأن هذا الموضوع كغيره من المواضيع يبدأ بداية بسيطة ثم ينمو ويتطور من خلال تهذيب اللاحق لما جاء به السابق ونقده والزيادة عليه، وبذلك تصبح الدراسة أكثر تعمقاً وأوسع شمولاً وهذا نراه في كيفية دراسة أو أشارة الجاحظ لهذا الموضوع وما وصل اليه عند دراسة حازم القرطاجني لنفس الموضوع.

ومن خلال كلامهم في هذا الموضوع ـ وبالاخص ما توصل اليه الخفاجي ـ نستطيع أن ندرك ونتلمس سرّ تلك الموسيقى الناتجة عن قراءة القرآن الكريم، وأن نفهم سر مقولة الوليد بن المغيرة لما سمع القرآن: «فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا برجزه ولا قصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه ما يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه طلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وانه ليعلو ولا يُعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته»(٦٠).

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

الهوامش

١ـابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج ١ / ص ٢٥٧.
٢ـالرماني، النكت في اعجاز القرآن، ص ٧٥، ٧٦.
٣ـالمرجع السابق، ص ٩٤ـ ٩٥.
٤ـالمرجع السابق ص ٩٤.
٥ـالمرجع السابق ص ٩٤.
٦ـالمرجع السابق، ص ٩٦.
٧ـالمرجع السابق ص ٩٥.
٨ـالنكت، نفس الصفحه.
٩ـالمرجع السابق، نفس الصفحة.
١٠ـالمرجع السابق، ص ٩٦.
١١ـالخطابي، البيان في إعجاز القرآن، ص ٢٦.
١٢ـالمرجع السابق ص ٢٦.
١٣ـالمرجع السباق ص ٢٨.
١٤ـابن رشيق، العمده في محاسن الشعر وآدابه ونقده ج ١ / ٢٠.
١٥ـالمرجع السابق، ج ١ / ١٩.
١٦ـالمرجع السابق، ج ١ / ص ٢٥٧.
١٧ـالمرجع السابق، ج ١ / ص ٢٦١.
١٨ـالمرجع السابق / نفس الجزء نفس الصفحة.
١٩ـالمرجع السابق / نفس الجزء نفس الصفحة.
٢٠ـالمرجع السابق / نفس الجزء ونفس الصفحه.
٢١ـ يقال: القيت عليه القيّة كقولك القيت عليه احجيّة (ابن منظور، مادة لقا، ٢ / ٣١٩) والاحجية: هي لعبة او اغلوطة يتعاطاها الناس بينهم (ابن منظور، مادة حجا ٣ / ٦٩).
٢٢ـالمرجع السابق / نفس الصفحه ونفس الجزء.
٢٣ـالخفاجي، سر الفصاحة، ص ٨٨.
٢٤ـالمرجع السابق، نفس الصفحة.
٢٥ـالمرجع السابق، ص ٨٧.
٢٦ـالمرجع السابق، ص ٩١.
٢٧ـالمرجع السابق، ص ٥٥.
٢٨ـديوان المتنبي، ج ١ / ص ٣٥٢.
٢٩ـالخفاجي، سر الفصاحة، ص ٩٧.
٣٠ـالخفاجي، سر الفصاحة ـ ١٠٠.
٣١ـالمرجع السابق / نفس الصفحه.
٣٢ـالخفاجي، سر الفصاحه ـ ص ٨٨.
٣٣ـالصرفه: أي ان الله صرف العرب عن معارضته وسلب قدرتهم وكان مقدورا لهم لكن اعاقهم امر خارجي. (السيوطي، الاتقان ٢ / ١٢٨).
٣٤ـالمرجع السابق، نفس الصفحة.
٣٥ـالجرجاني، دلائل الاعجاز، ص ٦٠.
٣٦ـالمرجع السابق / ص ٦٥.
٣٧ـالبغدادي، قانون البلاغة في نقد النثر والشعر / ص ٢٣.
٣٨ـالمرجع السابق، ص ٢٨.
٣٩ـالمرجع السابق، نفس الصفحة.
٤٠ـالمرجع السابق، نفس الصفحة.
٤١ـالمرجع السابق، ص ٣٤.
٤٢ـالمرجع السابق، ص ١٥.
٤٣ـابن منقذ، البديع في نقد الشعر، ص ٢٩٥.
٤٤ـالمرجع السابق، نفس الصفحة.
٤٥ـابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج ١ / ص ٦٧.
٤٦ـالمرجع السابق، ج ١ / ص ٦٦.
٤٧ـالمرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.
٤٨ـالمرجع السابق، ج ١ / ص ١٤٢.
٤٩ـالمرجع السابق / ج ١ / ص ١٥٧.
٥٠ـابن ابي الاصبع، بديع القرآن، ص ٧٧، تحرير التحبير، ص ١٩٥.
٥١ـتحرير التحبير، ص ١٩٦.
٥٢ـالمرجع السابق، ص ٤٥.
٥٣ـبديع القرآن، ص ١٦٦.
٥٤ـالمرجع السابق، ص ٢٠٤.
٥٥ـالقرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص ٢٢٢.
٥٦ـالمرجع السابق / ص ٢٢٣.
٥٧ـالمرجع السابق / نفس الصفحة.
٥٨ـالمرجع السابق، ص ١٢٩.
٥٩ـالمرجع السابق / نفس الصفحة.
٦٠ـالسيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ج ٢، ص ١١٧.

المصادر والمراجع:

١ـالقرآن الكريم.
٢ـابن أبي الأصبع، عبد العظيم بن عبد الواحد، تحرير التحبير، تحقيق حنفي شرف، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، مصر، ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣م.
٣ـابن أبي الأصبع، بديع القرآن، تحقيق حفني شرف، مكتبة النهضة، مصر، ط ١، ١٣٧٧هـ.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

٤ ـ ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد عبد الحميد، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٥٨ هـ.

٥ ـ ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط ٤، ١٩٧٢م.

٦ ـ ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، شرح عبد المتعال الصعيدي، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٩٦٩م.

٧ ـ أسامة بن منقذ، البديع في نقد الشعر، تحقيق بدوي وعبد الحميد، وزارة الثقافة، مصر، ١٩٦٠.

٨ ـ البغدادي، أبو طاهر، قانون البلاغة في نقد النثر والشعر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٨١م.

٩ ـ الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الاعجاز، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٧م.

١٠ ـ حازم القرطاجني، مناهج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق الحبيب بن الخوجه، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٨١م.

١١ ـ الخطابي، حمد بن محمد، بيان إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز)، تحقيق خلف الله وسلام، دار المعارف، مصر، ١٩٧٦م.

١٢ ـ الرماني، النكت في اعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز)، تحقيق خلف الله وسلام، دار المعارف، مصر، ١٩٧٦م.

١٣ ـ السيوطي، جلال الدين، الاتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٣٧م.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی